عصره . . وحياته

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقي سرور

— ٢ —

فجر التصوف وضحاه :

مع مكانة التصوف الكبرى فى الفكر الإسلامى ، وماقدمه للحياة الإسلامية فى شتى مراحلها . من مناهج المعرفة والأخلاق والسلوك الاجتماعى وما أفاض على الثقافة الإسلامية ، من معان مشرقة عالية ، فى كل مايتصل بالروح والقلب ، وصلة الإنسان بخالقه وسيره إلى محبته ورضوانه ، وما أبدع فى هذا السير من أحوال ومقامات ، وأذواق ومشاهدات وإلهامات ، سهمت فى تعميق المعانى القرآنية واتساعها وشمولها .. كما سهمت فى تكوين تلك الحياة الروحية التى أصبحت من أكبر العناوين المتلألئة ، فى جبين الدعوة الاسلامية ، وفى أفق رسالتها العالمية .

مع هذه المكانة الضخمة ، لاتزال الأقلام قلقة مضطربة ، وهى تتناول نشأة التصوف وتدرجه فى التاريخ الإسلامى .

وسر هذا الاضطراب ، أن كتب الطبقات الصوفية ، لم تضع منهجا علميا لتاريخ الحياة الروحية فى الإسلام ، فقد اعتبرت أئمة الصحابة جميعا من رجال الطبقات الصوفية ، ومن ثم اعتبرت بداية الإسلام ، هى بداية التصوف ؟

وجاء رجال التاريخ الإسلامى ، وجلهم من الحنابلة الذين خاصموا منهج التصوف فى المعرفة والسلوك ، فلم تتجه أقلامهم إلى تدوين تلك الحياة الخصبة المثمرة ، بل ألقوا عليها ستارا ،

ولم يرجوا لها وقاراً !!!

ثم جاء رجال الاستشراق فى عصرنا ، فبذلوا جهوداً ضخمة فى دراسة التصوف الإسلامى ، ورجاله وتراثه .

ولكن هذه الجهود الضخمة ، شابها وشوه من جلالها ، عقدة نفسية ، تحملها أقلامهم ، وتستقر فى أعماق قلوبهم ، وتدفعهم دفعاً إلى تصوير التصوف الإسلامى ، فى أثواب مستعارة من الملل والنحل الروحية ، شرقية وغربية . وتدفعهم دفعاً إلى تحميل الكلمات والآراء أكبر مما تطيق ، وأوسع مما تحتمل ، ليضفوا على التصوف الإسلامى ، صوراً غنوصية غامضة ، من صور الغنوص الشرقى ، الذى يستهوى رجال الاستشراق ، وشعوب رجال الاستشراق .

وتابعهم وجرى فى ساحتهم فريق كبير من كتابنا ، بحكم التلمذة لهم حينا ، وبحكم التشدق بآراء مفكرين أوربيين أحياناً ، وبحكم جهلهم بالإسلام والتصوف أولا وقبل كل شىء .

ولسنا هنا بصدد التأريخ لهذه الحياة ، وإنما نحاول أن نرسم خطوطاً لها فى نموها وتطورها ، تعيننا على تفهم منهج الحلاج الروحى ، وصلة هذا المنهج الحلاجى ، بالإسلام والتصوف ، أو مجانبته لهما .

لقد وجد الروح الصوفى مع الإسلام منذ يومه الأول ، وليس معنى هذا ، أن الأذواق والمواجيد ، القلبية والروحية ، والمناهج الصوفية ، سلوكا ومعرفة ، كانت واضحة جلية ، فى أيام الإسلام الأولى ، وفى حياة أئمة الصحابة رضوان الله عليهم ، ففى هذا الزعم إسراف ومجانبة للحقائق .

ولكننا لو تأملنا فى آيات القرآن المحكمة ، وفى حياة الرسول الطاهرة ، وسير صحابته المشرقة ، نجد البذور الأولى ، للسلوك الصوفى ، وللمعرفة الروحية ، مبينة متلألئة .

وليس التصوف بدعاً فى هذا ، فكل منهج من مناهج المعرفة فى الإسلام ، انبثق كما انبثق التصوف من روح القرآن ، وجوهر رسالته ، وبدأ كما بدأ التصوف مع الإسلام ، ثم نما وتطور ومشى مع خطو الحياة ، وسنة الله .

فإننا مثلا نستطيع أن نقول مع الفقهاء ، إن الفقه نشأ مع الإسلام ، وليس معنى هذا القول أن التفريعات الفقهية ، والاستنباطات والمصطلحات الفنية ، كانت فى صدر الإسلام . .

وفى الكتاب والسنة ؟ وإنما كانت هناك البذور الأولى ، والمادة الأولى ، التى نمت وتطورت ومشت مع الحياة.

كان التصوف موجوداً فى صدر الإسلام بروحه وهديه ، وآدابه وخلقه ، وترفعه وزهده ، وعباداته وطاعاته ، وذكره ومناجاته ، كان موجوداً بجوهره لا بمصطلحاته ، وقائماً بكلياته لا بجزئياته .

كان التصوف فى صدر الإسلام . هو هذا الروح الدينى المهيمن المسيطر على حياة المسلمين كافة ، الموجه لحركاتهم ، وسكناتهم ، الصاعد بأعمالهم ونواياهم ، إلى خالقهم ومولاهم .

كان هذه الرقابة الحية اليقظة التى أقامها كل مسلم فى أعماقه ، ليراقب ما توسوس به نفسه ، ومايصطرع فى قلبه ، ومايتواثب فى نفسه ، ومايخفى صدره ، وما تطرف به عينه .

كان هذا الترفع الشامخ عن شهوات الدنيا وزخرفها ، والاعراض عن بريقها وفتنتها ، والزهد فى ترفها ومظاهرها ، والتسامى بكل ما فيها إلى وجه الله ، حتى يظفر بحبه ورضاه ، وقربه وهداه ، لأن الدنيا لاتزن عنده جناح بعوضة ، ولأن الآخرة خير وأبقى .

ثم مشت الحياة بالمسلمين ، وفتحت عليهم الدنيا ، وابتعدت مسامعهم عن نغمات الوحى وتفرقت قلوبهم عن المثياق والعهد ، وانحلت العزائم ، وفترت الهمم ، وتسارع الناس إلى المال والجاه ، ولهو الحياة ، ونشأت الفتن ، واختصموا على الملك ، وتصارعوا وتباغضوا ، وتشعبت بهم السبل .

ونشأت تبعاً لذلك ، حركات مضادة ، ورسالات مجاهدة ، صمدت فى وجه العاصفة . . ويحدثنا تاريخ النصف الثانى من القرن الأول للهجرة ، عن وعاظ ومرشدين ، وقفوا على أسوار القرآن ، ومعالم السنة ، ينذرون الناس ويدعونهم إلى ربهم ودينهم ، تميزهم شجاعة نفسية عالية ، أعانتهم على مواجهة الجبروت والاستبداد الذى بدأت طلائعه فى أفق الحياة الإسلامية .

وبجوارهم رأينا طائفة من الزهاد ، الذين وقفوا فى وجه فتنة الترف والإسراف ، وأخذوا يديرون لحونهم وأحاديثهم ، حول فضائل النفس ، وآداب الحس ، وتزكية الجوارح ، والزهد فى الدنيا ، وهوان أمرها ، وزوال نعيمها ، وضلال شهواتها .

ثم رأينا العباد المتبتلين ، الذين انقطعوا إلى طاعة الله ، وعبادته وذكره ، وأحالوا الكون إلى محاريب للصلاة والمناجاة ، ومنابر للتحدث عن نعم الله ، وعن عظمته وجلاله ، والأنوار التى يفيضها على الساجدين المتطهرين .

ومن هؤلاء وهؤلاء ، تكون الرعيل الأول ، من الصفوة الربانيين الذين عرفوا فى التاريخ باسم الصوفية أو كما يقول ابن خلدون :

« اختص المقبلون بانفاسهم على الله باسم الصوفية »

ثم ابتدأت تتكون لهذه الطائفة ثقافة إيمانية ، لها لونها وطابعها وخصائصها الفنية .

ثقافة تدور حول ذكر الله والهاماته ومجاهدة النفس ، وما ينبثق من هذه المجاهدة ، من آداب السلوك ، ومقامات السير ، ويتوج كل هذا ، الصلة بالله سبحانه ، وما يترقرق حول هذه الصلة ، من أذواق ولحون ، ومواجيد وأشواق ، ثم ثمرة هذا كله ، وهو المعرفة الباطنية ، وما تفيض هذه المعرفة من علوم وأنوار

ومن ثم بدأت الحياة الروحية ، تنفصل عن الحياة العامة ، وتستقل بمناهجها ومعارفها ، وابتدأ الصوفية يصطنعون كلمات تحدد اذواقهم ، وتعبر عن شعورهم . . وأخذ أفق هذه الكلمات يتسع لمعان متعدده ، وكانت كل كلمة تضاف إلى التصوف ، تفتح أفقا جديدا ، وتكون نبعاً متدفقاً ، وتتناولها السنة الصوفية ، فتفتقها وتبتدع لها صورا والوانا وأذواقا .

ثم أخذوا يكونون لهم فلسفة فى الأخلاق ، وفى السلوك ، وفى العبادة وأخذوا يجردون الأسباب من قوتها ويرجعون كل شىء إلى الله سبحانه ، فاكسبهم ذلك عزة خلقية ، وسعادة روحية ، قوامها الرضا بقضاء الله وقدره ، واليقين بان لا سلطان لقوة من قوى الأرض على مصائرهم وحياتهم ، أو كما يقول ابراهيم بن أدهم « نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيف »

كما أفاضت عليهم الثقة بالله والتوكل عليه ، شجاعة نفسية ، وقوة إيمانية لا تسامقها قوة ولا شجاعة ، يقول اسحاق بن ابراهيم السرخسى : « سمعت ذا النون المصرى ، وفى يده الغل ، وفى رجليه القيد ؛ وهو يساق إلى المطبق ، والناس فى بغداد يبكون

حوله ، وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى ، ومن عطاياه ، وكل فعله عذب حسن طيب ،

تلك الشجاعة الصوفية التى ستبلغ ذروتها فى البطل الشهيد الحلاج ، حينما صمد للمأساة صموداً لا يطاوله . فى التاريخ صمود .

هذه خلاصة سريعة للمعارف الصوفية ، فى القرن الثانى للهجرة ، ثم جاء القرن الثالث ، فبدأ معه العصر الذهبى للتصوف ، أو عصر النضوج العلمى للحياة الروحية .

وفى مطلع هذا العصر ، أخذت معانى الحب الإلهى ، الذى سمعنا جرسه لأول مرة فى الحان رابعة العدوية ومواجيدها ، أخذت معانى هذا الحب تتسع وتتلون بها المقامات والأحوال وأخذت كلمات الأنس والبسط والرجاء والخوف ، واليقين والمشاهدة ، تشيع وتؤتى ثمارها ، وتدرجت على أجنحة الحب ومعارجه حتى وصلت بالصوفية إلى مقام الفناء ، وهو أخطر مقامات التصوف وأبعدها أثراً فى تاريخه .

والفناء هو غاية الصوفية ففيه يشربون رحيق الحب الأعلى ، وينعمون فيه بمتع ولذائذ روحية ، تنسيهم دنياهم وأخراهم ووجودهم ، وكل شىء سوى المحبوب .

والحب أساس الأحوال الصوفية وقد اعتبر كما يقول « السهروردى » أساساً للاحوال ، كالتوبة بالنسبة إلى المقامات ، فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات ، من الزهد والرضا والتوكل ، ومن صحت محبته ، تحقق بسائر الأحوال ، من الفناء والبقاء والصحو والمحو (١)

ومن الحب تنشأ المعرفة والمشاهدة ولذة المعرفة والمشاهدة ، وفى الحب يتمتع المحب بالجمال المقدس ، وياله من جلال وجمال ؛ ونشوة الحب الكبرى ، تسمى سكراً ، والسكر علامة الصدق فى الحب وهو نشوة روحية لا يمكن تصورها إلا بالتجربة كما يقول الأمام الغزالى ، ولذلك قالوا : من ذاق عرف (٢)

---

(١) عوارف المعارف ص ٣٥٠ .

(٢) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٩ .

وهذا السكر الروحى ، حدقة يرى بها الصوفى، حقيقة الكون وسر الخلق يقول معروف الكرخى «إذا انفتحت عين بصيرة العارف نامت عين بصره فلا يرى إلا الله »

ونهاية السكر هو الفناء . وفيه يفنى المحب عن الموجودات ويتجه بكليته لمطالعة وجه المحبوب .

والفانى كما يقول الصوفية : لا يحس بما حوله ، ولا يحس بنفسه ، فقد فنى عما سوى الله ، ومن هنا جاء كلام الصوفية الذى لا يفهمه ولا يتذوقه سواهم ، حينما يقولون ، فى نشوة الفناء ووقدة الحب : « ليس فى الوجود إلا الله » .

إنها تجربة عليا ، تجربة ذاتية فى عالم الروح والسر ، تجربة كان أقوى وأجرأ من تحدث عنها «الحلاج» حينما بلغ الذروة العليا لمقام الفناء ، أو مقام الاتحاد ، وحينما ابتدع الحلاج من هذا المقام معارف صوفية تتحدث عن وحدة الأديان ، والنور المحمدى ، ووحدة المحب والمحبوب .

ويأتى بعد مقام الفناء ، مقام البقاء ، ويأتى بعد الوحدة مقام الجمع وبعد الجمع مقام التفرقة ؛

ومقام الجمع ، هو رؤية الحق بلا خلق ، وهى حالة وجدانية ، أو حالة دهشة وغيبة ، مع فقدان الإحساس بالأشياء وبالنفس .

والمحب هنا يعزل نفسه عن صفاتها ، بأن ينظر ، وكأنه بمثابة النظر لا الناظر ، ويسمع ويعى وكأنه بمثابة السمع والوعى ، لا السامع والواعى ، ويتكلم وكأنه بمثابة الكلام لا المتكلم .

إنه مقام إشارة ، إلى حق بلا خلق . . . وحالة الجمع هذه هى الحالة التى قال فيها الصوفية ، الكلمات الجريئة التى عرفت ، باسم « الشطح » والتى هوجم التصوف والصوفية من أجلها ، وتضرب الأمثال بكلمة أبى يزيد البسطامى « سبحانى » وبقول الحلاج : « أنا الحق »

وقد قيل لشيخ الطائفة الجنيد : « إن أبا يزيد يسرف فى الكلام فقال: وما بلغكم من إسرافه فى كلامه ؟ قالوا سمعناه يقول : سبحانى .. سبحانى .. أنا ربى الأعلى . . . ؟

فقال الجنيد : إن الرجل مستهلك فى شهود الإجلال ، فنطق بما استهلكه لذهوله عن رؤيته إياه ، فلم يشهد

إلا الحق تعالى ، فنعته فنطق به [1] .

ويعتبر كبار الصوفية ، مرحلة الجمع هذه ، أدنى مما يجب أن يكون عليه الكمل من المحبين الذين يجب أن يتحققوا بما يسمونه : جمع الجمع : أو « صحو الجمع » أو « الفرق الثانى » .

وهى مرحلة تعقب مرحلة الجمع السابقة ، ويجمع الصوفى فيها بين الجمع والفرق معا ، لأنه لا بد للعبد منهما ، فان من لا تفرقة له ، لا عبودية له [2]

وحالة جمع الجمع هذه ، حالة وعى وصحو وإدراك ، مع بقاء المعرفة الصوفية التى كانت فى حال السكر ، فلا يزول عن صاحب المقام إدراك الوحدة ، إذا نظر إلى الكثرة ، أو إدراك الكثرة إذا نظر إلى الوحدة .

وهذه حالة فيها جمع من وجه ، وتفرقة من وجه ، فالجمع باعتبار الشعور بالوحدة ، والفرق لادراك الخلق ، وصور الكون كما هى .

ومن المتحققين بهذا المقام أبو القاسم الجنيد . ويقول فى هذا المعنى :

وتحققتك فى السر م فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعـ ظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك الوجد م من الأحشاء دانى

فالجنيد يجمع لمعان ويفرق لمعان وهذا هو جمع الجمع ، وحال العارفين الكمل المحلقين على أجنحة الوجد .

ومقامات التصوف ومعارفه ومناهجه ، أفق يتلألأ جمالا وكمالا ، أفق صاغه الإلهام ، وفتق جوانبه الإيمان . وشيد سماواته الحب الإلهى وما يفيض هذا الحب من مشاهدة يقينية ، وعلوم فيضية ومنح ربانية .

أفق مترامى الأبعاد ، تعجز العقول المادية الأرضية عن ارتياده ، واكتشاف اسراره ، والاهتداء إلى أنواره .

إنه أفق لأصحاب العقول والأذواق الذين صفت ارواحهم بالطاعة ، ورقت بالمجاهدة وشفت بالمحبة وسمت بالاصطفاء ، حتى شهدت بالاجتباء ، مالا عين رأت ، وسمعت مالا إذن سمعت ونعمت بما لم تنعم به القلوب التى لم تبرح نطاق الماء والطين .

والقرن الثالث للهجرة يعتبره الصوفية أكبر وأخطر مرحلة فى تاريخ الحياة الروحية .

إنه العصر الذى بلغ فيه التصوف

---

(١) شطحات الصوفية ص ٦٨ (٢) التعريفات للجرجانى ص ٥٣

ضحاه واكتمل نموه وشيد صرحه ، وتدعمت مدارسه .

العصر الذى شهد الأعلام الأئمة الكبار الذين يدين لهم التصوف بخطوطه العريضة المضيئة . . العصر الذى عاش فيه ، الحارث المحاسبي (ت سنة ٢٤٣ هـ) سيد المتحدثين عن دقائق ورقائق المحاسبة والمراقبة ، وذو النون المصرى (ت ٢٤٥) أكبر المتكلمين عن أسرار المقامات والأحوال ، وأبو اليزيد البسطامى (ت ٢٦٤ هـ) بتحليقاته والهاماته فى مقامى الحب والفناء وأبو سعيد الخراز (ت ٢٧٧ هـ) استاذ مدرسة السلوك القلبي والخلق المثالى ، وسهل بن عبدالله التسترى (٢٨٣ هـ) مربى العارفين القانتين وشيخ الطائفة وإمامها . أبو القاسم الجنيد (ت ٢٩٧) الحجة الذائق الواصل فى مقام التمكين .

وأخيرا الشهيد الحسين بن منصور الحلاج الذى بلغ به التصوف كما يقول « ماسنيون » اقصى درجاته الفنية . وتحقق فيه الرمز الأعلى للصوفى المحب الفانى .

والحياة الصوفية فى القرن الثالث الهجرى بكل ما فيها من عظمة واشراق وأسرار فى المقامات والاحوال . وبكل ما اشتملت عليه من محبة وفناء ومشاهدة وفرق وجمع وفتح وجهاد فى سبيل الكمال . واستشراف للمثل الأعلى .

كل هذا نشاهده مبينا واضحا مصورا فى حياة الحلاج . ونضاله وصراعه واستشهاده .

بل إن الحلاج ليعرض علينا آفاقا قلبية ، ومعارج روحية والوانا من الحب الإلهى والهاماته وما فيه من شوق ووجد وعذاب وحرقة وتقلب فى ملكوات ، المشاهد والأنوار ، لا نراها عند غيره .

لقد انبثق الحب الأعلى . الحب الأعظم فى قلبه ووجدانه وحسه ودمه وكيانه فاذهله وحيره وافناه عمن سواه حتى لنراه فى أسواق بغداد بقامته الفارعه ولونه الأسمر الجميل . وسمته المهيب ومنطقه الساحر وهو يهيم على وجهه وقد صرعه حبه وهو يصيح :

« يا أهل الاسلام . أغيثونى ؟ فليس — أى الله — يتركنى لنفسى فاتهنى بها ؟ وليس يأخذنى من نفسى فاستريح منها وهذا دلال لا أطيقه » .

طه عبد الباقى سرور